أزمة البحث عن الحرية في رواية (قاتل حمزة) لنجيب الكيلاني

أ/ مداني زيقم
جامعة سوق أهراس

الملخص :

يطرح نجيب الكيلاني في روايته "قاتل حمزة" قضية جوهرية اتسم بها الأدب العربي الذي تلا فشل ثورة يوليو 1952 في تحقيق أهدافها، وهي مفهوم الحرية، فالخيبة التي تلت هذه الثورة بعث بإحساس لدى المثقفين والأدباء بعبثية مجهوداتهم فعالجت خطاباتهم ما يسمى بأزمة المثقف فكانت شخوص رواياتهم دائمة الشعور بالاضطهاد والإحباط متسمة بالتمرد والثورة لافتكاك الحرية على شاكلة أبطال الروايات الوجودية الغربية.

عالج الكيلاني من منظور إيديولوجيته فقد دلل من خلال بطله الثائر لامعقولية التمرد ولا جدوى الحرية اللامشروطة، إذ سلك بطله خطوات البطل المتمرد فتنصل من كل القيم المتوارثة ليسلك طريقا شائكة بحثا عن حريته المسلوبة ويخوض العديد من التجارب تجلت في مدارج التحرر التي تحدث عنها رائد الوجودية المؤمنة سورين كيار كيجارد، ويؤكد من خلال الفلسفة الوجودية نفسها أن الحرية لا تتحقق إلا في كنف الإيمان.

Résumé :

Najib El kilani dans son roman « Le tueur de Hamza » a mis en exergue la problématique relative à la notion de liberté et que désormais la révolution de juillet 1952 n'a pas pu réaliser tous ses objectifs. La déception qui a suivi cette révolution a engendré un sentiment de désespoir voire d'absurdité vis-à-vis des efforts consentis par les intellectuels arabes de l'époque. Cela a été traduit par des discours traitant la crise de l'intellectuel. Les personnages des romans représentaient les sentiments de persécution et de désespoir mais souvent exprimaient une certaine révolte et une remise en cause des situations vécues afin de recouvrir leurs libertés confisquées, à l'image des héros des romans existentialistes occidentaux.

A travers son héros rebelle, l'auteur a évoqué l'absurdité de la révolte et le non sens d'une liberté inconditionnelle. Son héros a suivi les péripéties du héros révolté. Il s'est donc désengagé de toutes les valeurs héritées pour poursuivre un parcours semés d'embuches allant à la recherche de sa liberté confisquée. Il entamera plusieurs expériences matérialisées dans la hiérarchie de la libéralisation dont a parlé le chantre de l' existentialisme Søren Kierkegaard et qui stipule à travers la philosophie existentialiste elle-même que la liberté ne peut se réaliser que dans la foi.

من وعاء تاريخي تستدعي رواية "قاتل حمزة" لنجيب الكيلاني أحداثا ماضية، لتثير قضايا راهنة، تتعلق بالوعي العربي المعاصر، وتطرح نظرة ناقدة للفكر العربي المجاري للفكر الغربي، نطلع على هذه القضايا من خلال جملة من البنى الموضوعاتية، هيمنت على فضاء الرواية الدلالي.

أولا-التمرد:

من زاوية مغايرة للقراءات التي خُصَّت بها رواية " قاتل حمزة " لنجيب الكيلاني، نستشعر سمة خاصة أودعها الكيلاني في روايته، فرغم أنه استوحى الأحداث والشخصيات من بين طيات التاريخ، إلا أنه عالج قضايا فكرية معاصرة، فقد سعى إلى تمرير مواقفه تجاه فلسفة معاصرة، اكتسحت عالم الفكر والرواية العربيتين، وهي الفلسفة الوجودية[1] بتياريها وبشكل خاص تيارها العبثي.

جاءت الوجودية استمرارا للنزعة المثالية الميتافيزيقية، اشتركت معها في رفض تفسير العالم تفسيرا ماديا، وفي أن العالم تسيره قوة خفية هي " واجب الوجود "، وتجلت هذه الشراكة مع ميلاد أول تيار للوجودية وهو التيار المؤمن بريادة سورين كيار كيجارد، لتحل فيما بعد وتتحول الوجودية إلى ابن عاق للنزعة المثالية الميتافيزيقية من خلال التيار الملحد بشقيه الملتزم والعبثي الذي يمثل أقصى حدود التمرد.

وقد مثل القرن العشرون عصر الوجودية التي وصفت بأنها «فلسفة لا عقلانية .. فلسفة للذات لا للموضوع وللإنسان لا للطبيعة والتجربة الحية لا العقل النظري»

خامرت هذه الفلسفة عقول الروائيين العرب، وداعبت أرواحهم نتيجة الإخفاقات والهزائم العربية المتكررة، ولعل هذا ما عبر عنه نجيب محفوظ في حوار أجراه مع جمال الغيطاني قائلا: «أحيانا يزحف الشعور بالعبث خاصة في لحظات الشعور باليأس والضيق، الحياة من حولنا تبدو قاسية، حياتنا الشخصية في واقعنا المحلي تبدو أحيانا عبثية.. عبث اجتماعي.. لا معقول واقعي.. إننا نعيش حتى الآن إحباطات، وإحباطات مستمرة، منذ أن وعينا، مجرد أن نتنفس نجد من يجثم على أنفاسنا ليكتمها،

ويفسد حياتنا.. وهذا فظيع /.../ على أية حال أعترف لك بأنني سقطت في العبث لدقائق، بعد هزيمة يونيو، صحيح أن المقاومة بدأت، لكن كان الواقع يبدو عبثيا فظيعا »[2].

ولعل ما يضفي شرعية على سلوك الروائيين العرب، وإلحاحهم على فكرة العبث، وتأثرهم بفكرة البطل المتمرد هو تلك الحروب على الصعيد القومي المصري، والتي ارتبطت بثورة يوليو 1952، وعلى الصعيد العالمي، إذ بلغت ذروة الحرب الباردة بين المعسكرين فكان الدمار والتناحر ذا أثر عميق على نفسية الروائيين. فترجموا هذه المعاناة في خطاباتهم الأدبية، التي تحولت من معالجة قضايا المجتمع إلى تسليط الضوء على الذات الفردية التي اتسمت بالانكسارات والاخفاقات، فكانت ردة فعلها الثورة والتمرد *.

أراد الكيلاني أن يبين ومن خلال بطله الثائر، فشل تجربة التمرد التي تقوم عليها الفلسفة العبثية، وبسبل ومدارج الفلسفة الوجودية المؤمنة –الأب الروحي للوجودية الملحدة–أكد أن إثبات الوجود لا يتم إلا من خلال الارتماء في المدرج الديني.

بدأت تجربة بطل الرواية وحشي بالثورة على كل القيم والتقاليد والأفكار الصادرة عن الآخر (كافرا أو مسسلما) لتنتهي به إلى الارتماء في أحضان الإيمان بالله، والعبودية الأصيلة لرب الأرباب.

يطل علينا بطل الرواية "وحشي" العبد المملوك بصفات تفرده عن كل العبيد، فهو كما قال الراوي عنه: «لم يكن عبدا ككل العبيد، كان يحلم بالحرية» [3]، ولم يرضخ كحبيبته عبلة ومن شاكلها من العبيد، لحياة العبودية، لقد أدرك، وبحس وجودي أن: « العبيد أتعس ما في الوجود »[4] ، لذلك اتسمت سلوكاته بالتبرم، ورسم لنفسه دربا خاصا، قوامه التمرد على كل القيم التي جعلت منه عبدا ذليلا.

أنكر وحشي كل أخلاق العبيد التي ترضخ للموجودات والوقائع، وعوضها بأخلاق السادة، التي تؤمن بالإنسان الفرد المتفوق الصاعد، وتزدري كل ماهو عادي؛ تزدري سادة قريش الذين كبلهم حب المال والسؤدد، وتزدري أتباع محمد الذين خضعوا –في زعمه–لسلطة وقيم إلهية لا تنبع من الذات.

أحيط وحشي بفضاء من الظلمة والسواد، فكل أرائه المتمردة التي أفضى بها إلى محبوبته عبلة، باح بها في جنح الظلام، ولم يجهر بها في النهار، بل إن أول تواجد له كان في الظلمة، هذا الفضاء الرمزي الذي يوحي بظلمة العالم الذي سيّجه به الآخر، حين سلب هويته ووجوده، وهذا ما توضحه هذه المقطوعات السردية، التي يسوقها الراوي، «وفي خضم ذلك الظلام، خارج مكة، كان هناك رجل تجلس إلى جواره فتاة، وحيدين في خلوتهما البعيدة، وبدأ الرجل شاردا بعض الوقت، تمتمت الفتاة وقد آلمها شروده:- " ما بك يا وحشي؟؟ "-"عواصف هائلة تضطرم في نفسي»[5] ، ويواصل الراوي وصفه لفضاء الظلمة « تنهّد وحشي في حسرة وأخذ يجوب الآفاق السوداء بنظراته القلقة »[6]، وتعمّد الراوي أن يصف وحشي بوجهه الأسود المتواجد في الظلام، ليعمق بذلك الإحساس بعالم وحشي الظلامي الذي صبغه الآخرون بالسواد:« أدار إليها وجهه الأسود، وبريق عينيه يومض في الظلمة وقال:« نحن العبيد أتعس ما في الوجود، حياتنا سقيمة .. معقدة، قوامها الذل والكدر والأحزان .. »[7]

ولّدت كل هذه السوداوية التي صبغتها القيم والأفكار المقدسة التي سنّها أسياد قريش ظلاما دامسا في نفسية وحشي، وجعلت منها موطنا لعواصف تكدر حياته، وتنفي وجوده، فما كانت ردة فعله إلا ثورة وحقدا ينفثه في وجوه الخليقة، ويردد وحشي مقولة تسفر عن فلسفته في الحياة «ليذهب العالم كله إلى الجحيم» [8] أو كما قال جون بول سارتر: الجحيم هو الغير»[9]. ذلك الجحيم الذي نسف تواجد بطل الرواية وحشي، لذلك – وكمحاولة منه لإثبات وجوده-. فهو لا يرى الأمور إلا من زاويته الذاتية، ومن وقع وواقع تجاربه الخاصة: يقول لعبلة: «إنني أتكلم من واقع مأساتي الخاصة .. ولا أنصاع كثيرا لآراء الآخرين وتجاربهم»[10]، وهذه النظرة الفردية الذاتية تعدّ من أبرز مقولات الفلسفة الوجودية، فالوجود كما يرى أصحاب هذه الفلسفة «هو أولا وجودي أنا السائل، وليس هذا الوجود حالة أو جزئية تنتسب إلى وجود بوجه عام أو إلى كلّي هو الوجود المطلق، بل الوجود في جوهره وأصله هو وجودي أنا، أنا الذات المفردة »[11].

انطلاقا من هذه النزعة الفردية يكون الالتزام في الوجودية بالوقائع المباشرة الصادرة عن التجارب الشخصية لا عن التجارب والأخلاق والقيم التي أملاها واقع

الآخرين وهذا ما اعتقده الأب الروحي للوجودية سورين كيار كيجارد، واعتنقه آخرون من بعده، فقد كان جوهر القضايا عند كيجارد –كما قال–هي: «أن أجد حقيقةً، حقيقةً ولكن بالنسبة إلى نفسي أنا؛ أن أجد الفكرة التي من أجلها أريد أن أحيا وأموت»[12].

ثار وحشي على الخضوع والعبودية بكل أشكالها، ونسف حتى فكرة العبودية للإله، وعوضها بتمجيد ذاته إذ يقول: «لو كان هناك شيء يعبد لعبدت ذاتي، أنا كل شيء..» [13]، إنها نزعة تمجيد الذات التي تقوم عليها الفلسفة الوجودية، فهو يرى ذاته مركزا للعالم، بها وعليها يقوم الوجود.

هكذا كان ديدن قاتل حمزة، ففي أثناء حواره مع صديقه سهيل الذي أراد أن ينير له طريق الحرية الحقة، وهو طريق الإيمان، الذي يرفض وضع المنفعة الشخصية مبدأ وحيدا في الحياة، يردّ عليه وحشي قائلا: «إنني يا سهيل لا أستطيع أن أنزع نفسي من أية قضية عامة .. إنني أقيسها بما يتبعها من تكاليف تمس وجودي »[14] .

يمكن لقائل أن يقول إن تمرد وحشي على القيم التي ابتدعتها قريش، ما هو إلا ردة فعل طبيعية، لأنها قيم جائرة مسّته هو بالدرجة الأولى باعتباره عبدا مملوكا، ومن ثمة فلا داعي لفلسفة هذا التمرد، والرد هو أن ثورة وحشي لم تقتصر على أسياد قريش فحسب، بل وُجّهت ضد كل من حاول أن يطمس أو يحتوي ذاته، فهو لم يركن إلى القيم المتوارثة بجميع أشكالها، لذلك اتسمت شخصيته بالتبلبل والقلق تجاه كل القيم الجاهزة؛ قيم قريش الجاهلية، وقيم أتباع محمد الإسلامية رغم أن قرناؤه من العبيد وجدوا الراحة والاطمئنان في كنف الدين الإسلامي، ففي محاولات عبلة الحثيثة لإقناع وحشي بإدراك منبع الراحة، ولجعل الحقيقة تشرق أمامه، تسوق له مَثل بلال بن رباح، ذلك العبد الأسود الذي أصبح سيدا بين المسلمين، وحظي بشرف الآذان الذي لم يحظ به حتى صحابة الرسول ρ المقربين، رفض وحشي أن يقتدي ببلال مبررا رفضه بأن إيمان بلال هو إيمان العبد الساذج الذي لا يملك ملاذا آخر ليتحرر من عبوديته، غير اتباع الدين الإسلامي، « هز وحشي رأسه قائلا:" أجل رأيته .. ورأيت الطمأنينة تبدو على ملامح وجهه وفي نبرات صوته، وخطواته .. لكنه ساذج لا يفكر بعمق.. لايتعذب في البحث

عن الحقيقة »[15]، تلك الحقيقة التي لا تلد إلا بمخاض القلق، ولا تتبع إلا من لدن الذات **.

إن وحشي "بطل وجودي"، رسم لنفسه طريقا محفوفا بالقلق والعذاب، معبدا بالثورة والتمرد، للوصول إلى كنه الحقيقة، يقول كامو:« العبث هو أقصى درجات التوتر، وهو يبقي على هذا التوتر بمجهوده الشخصي المنفرد، لأنه يعرف أنه عن طريق هذا الإدراك وعن طريق التمرد المتجدد كل يوم، إنما يقيم الدليل على الحقيقة الوحيدة بالنسبة إليها ... وهذه الحقيقة ليست إلا التحدي »[16] ، لكل ما يبدّد وجوده ويطمس ذاته، يقول وحشي:« /.../ هذا ما فعلته عبلة، وأنا لن أرضخ للهزيمة، وأرتضي العجز، إنني أقوى من إسلامها ومبادئها، وستظل دائما في المكان الأدنى، وستظل لي اليد العليا عليها /.../ وستعلمين عندئذ أنني أقوى منك ومن محمد بأفكاري وتدبيري وإصراري إنني أعرف ما أريد ».[17]. لم يكن وحشي بوقا لقيم الآخرين، لقد رفض كل القيم المتوارثة، وآثر التحدي والصمود، مدركا ضرورة خلق قيم نابعة من ذاته، فرفع بذلك لواء التحدي والتمرد.

ومن بين خصائص التمرد التي حددها كامو عدم التفريق بين الحق والباطل وبين الخير والشر، فهناك حيرة تجاه المعايير الأخلاقية، لأنها لا تقدم حلا مرضيا للمشكلات[18]. تنطبق هذه الخاصية على قاتل حمزة الذي لا يبدي اهتماما بشأن المبادئ والأفكار، وكل تلك المناقشات الدائرة حولها، يقول الراوي عنه: « ليكثرْ الحديث عن الله والشيطان، والجنة والنار.. والكفر والإيمان، إن كل هذه الأمور –حسبما يتصور وحشي– لا تهمه من قريب أو من بعيد ».[19]

جعلت الحيرة واللامبالاة تجاه المبادئ والأفكار الموروثة وحشيّا ينفر من كل المثاليات، ولا يؤمن إلا بما هو ملموس، يقول لوصال؛ صديقته المومس عن موقفه تجاه عبلة التي رفضته، ورفضت حريته: «لا تهمني روحها /.../ إنني أمسك بلحمها /.../ بجسدها /.../ لا أريد غير ذلك .. الجسد هو الحقيقة الكائنة التي أؤمن بها عند اللقاء» (20)

لا تتجلى مادية وحشي في التعامل مع المرأة فحسب، بل في كل معاملاته، يقول عن نفسه: «إنني أبحث عن الكسب وأناور ... لا يهمني أن أعتنق هذا الدين أو ذاك .. أريد أن أطبق مبادئي بأية طريقة مناسبة» [21].

إن الإيمان بالملموس وتأكيد المواقف المادية عوضا عن الاتجاهات المجردة خاصية هامة تميز مفهوم التمرد كما حدده كامو[22]، وبذلك يكون وحشي بطلا وجوديا، ديدنه الثورة والتمرد، لكن أين سيفضي به تمرده ؟ هل سيكون على شاكلة أبطال روايات كامو؟ أم أنه سيأخذ منحى آخر، هذا ما سنعرفه في:

ثانيا-أزمة البحث عن الحرية:

تجسدت قصة وحشي في رحلة سلكها لاهثا وراء حريته المفقودة، وكرامته المداسة، انتفض ضد حياة العبودية، وقرر خوض غمار معركة انتزاع حريته التي سلبها الغير منه*** حينما جعله لا يحظى حتى بمرتبة الحيوان، «أما نحن واكرباه !! لم نصل إلى رتبة الإنسان، ولم نحظ بمرتبة الحيوان»[23] ، هذا الاستلاب هو الذي جعل درب وحشي ديدنه البحث عن الحرية المفقودة، عازما الإقدام على أية وسيلة تدنيه منها، وهذا ما يؤكده لحبيبته عبلة التي ترجّته أن يتخلى عن أفكاره، ليعيشا في اطمئنان يقول لها:« إنني على أتم الاستعداد لأن أرتكب أية حماقة، أو آتي أي إثم لأثبت وجودي.. لأحقق ذاتي .. لأنفي عن نفسي وصمة العار والعبودية ».[24].

هي إذن رحلة بحث عن الحرية، التي سلبها منه الآخر، هذا الآخر الذي لا معنى له إلا بالقدر الذي يبرز ذاته، ويحقق وجوده في كنف الحرية، فوحشي لا تعنيه مبادئ قريش ولا المسلمين ولا الحرب الضارية بينهما، إن كل ما يشغل باله هو مأساة عبوديته، «إن ما أفكر فيه هو مأساتي أنا .. عبوديتي الذليلة .. إنني ذاهب لآتي بحريتي .. »[25] .

فمنذ البداية يطفو طموح وحشي الرامي إلى نيل الحرية على السطح، فحتى في لحظات انتشائه رفقة محبوبته عبلة، يسيطر عليه هاجس الحرية، ويستشعر مرارة العبودية في جو نفسي مضطرب، ويصرّح برغبته اللحوح:" الحرية .. "[26]، تلك الأمنية،

التي حرمه منها الآخر، حين سنّ قيما تبيح استعباد البشر للبشر، ويرتسم بريق الحرية المغري بين يدي سيده جبير الذي ساومه على حريته مقابل سفك دم عدو قريش: حمزة بن عبد المطلب: «والله يا وحشي لئن قتلت حمزة لأهبنك الحرية » [27]، وكانت كلمات جبير عن الحرية شعاع نور في ظلمات العبودية التي كانت تكبله، ولأن رغبة وحشي في الانعتاق جامحة لا تقهر، لم يتبادر إلى ذهنه خيار التردد، بل كان على أتم الاستعداد للإقدام على أي عمل ليمحو عن نفسه ماضي العبودية.

نفض وحشي غبار الذل، وارتسم أمامه هدفا مغريا، هو البحث عن معنى حياته الذي افتقده بفقدان حريته، ما جعله يجوب مسالك مريرة، ويخوض تجارب حثيثة، بدءا بتجربة العتق الجسدي، مرورا بلذة المال، وصولا إلى لذعة الجنس، تجلت كل هذه التجارب في مرتبة أولى من مدارج التحرر هي مرتبة المدرج الحسي، ليلجأ إلى المدرج الديني الذي أوصله إلى هدفه المنشود (الحرية)، وذلك بالارتماء في حضن الألوهية.

1-المدرج الحسي:

1-1-العتق الجسدي:

أفقدت حياة العبودية وحشي معنى وجوده، وجعلته يهجر أخلاق العبيد التي تخنقه، ويلجأ إلى البحث عن حريته، كانت أول محطة في طريق بحثه هي " العتق الجسدي".

قبِل وحشي وبدون تردد قتل فارس العرب، فأصبح يوصف بقاتل حمزة، فنال بذلك انعتاقه بحرْبته، وأصبح كما أراد بشرا، يأكل ما يشاء، ويفعل ما يشاء، وينام ويصحو في الوقت الذي يريد، بل وأضحى محطّ عيون الجميع، وموضوع كلام السادة والعبيد، ترمقه العيون باحترام، وتطربه أحاديث الفخر، وينتشي لكلمات المدح، لكن هل أصبح وحشي بشرا سويا كما حلم، وهل عثر على معنى الحرية المفقودة؟

كانت أول خيبة الأمل في أول لحظة من لحظات حريته، بعد تنفيذه لشرط انعتاقه، ففي عز تشوه انتصاره أمام جثة بطل العرب الهمام، تاه وحشي بمشاعره،

واختلطت عليه الأحاسيس، وسمع كلمات لا يعرف مصدرها، كدّرت نشوة انتصاره:" أيها الأجير ..[28]، ماذا يعني ذلك؟ ألم يصبح وحشي ملكا لنفسه؟ ألم يحقق وجوده؟ لا لم يتغير وحشي !! فـــ: «السماء هي السماء .. وأحد ينتصب قبالتي شامخا دون أن يعنيه من أمري شيئا ..الوهاد والآكام لم تتغير .. كل شيء على حاله، إنني أصبحت حرا، لكني لم ألمس بيدي شيئا بعد». [29]، أما الطعنة القاسية التي تلقاها وحشي، فكانت نفور حبيبته عبلة واحتقارها لحريته؛ عبلة التي « كانت رصيده الوحيد في صحراء الحياة الحارقة الجافة .. الواحة الخضراء التي يأوي إليها ..»[30]، والتي ظن أنها ستركع تحت قدميه راجية القرب والعطف.

وظلت صورة حمزة تطارده أينما حلّ، وتذكره بغدره ولؤمه، وبقيت نظرة سادة قريش إليه، نظرة الاستخفاف والاحتقار، وترسَّخ عار العبودية وصمة على حبيبته، ويصور وحشي خيبته وأرقه رغم انعتاقه الجسدي قائلا: «إنني حزين برغم الحرية ..أتُرى كان شعور عنترة بن شداد مثل شعوري الآن؟؟ – لا لقد كان سعيدا .. » [31] ، لأن عنترة كان بطل حرب، ولم يغدر بخصمه، ولم يجبن، فنال حريته باستحقاق.

تعمقت الهوة بين وحشي، وبين كل من حوله، فلا هو عبد، ولا هو حر، لقد وقع بين المنزلتين، وسقط من جديد في دوامة التعاسة والتفكير المضني، فلجأ إلى أجواء العبث، التي تبعده عن منطق الواقع الذي نشز منه.

1-2-لذة المال:

ظن وحشي أن امتلاكه للمال والجواهر والهدايا التي أغدقت عليه بها هند بنت عتبة، ومولاه جبير، ستصنع منه سيدا مهابا ومحترما بين سادات قريش، وأراد أن يشتري حبّ عبلة التي احتقرته، وازدرت حريته بالمال، لكنها أصرت على الولاء لسيدها جبير، لأنه –حسبها–يملك جسدها، ولا يمتلك روحها وفكرها، فكان ولاؤها لسيدها، بديلا عن أن تُطْبِق بنفسها بين جدران سجون وحشي، الذي ضاع بين تمرده، وحقده وأوهامه، وتتحسر عبلة على حبيبها التائه؛ «أين أنت؟؟ إنني أبحث عنك فلا أجدك .. أين الرجل القديم الذي ملأ علي حياتي .. وأحال الحاضر والمستقبل إلى جنة وارفه الظلال؟؟ » [32] .

لم يغن الانعتاق والمال وحشيا من جوعه وظمئه إلى الحرية، بل ظل أسيرا تحت سطوة العبودية التي أبت مفارقته، بل وحتى البغيّ وصال التي كان يلجأ إليها ليدفن ذله وعاره، رفضت أن يبقى في فراشها –رغم إغرائها بالمال–لأن أحدا من علية القوم أجدر منه به [33].

1-3-لذعة الجنس:

انكشفت لوحشي حقيقة عبوديته برغم عتقه الجسدي وانتعاش وضعه المادي، وحالت حياته إلى سلسلة من الاخفاقات والهزائم، ففر من تخبطاته وأزماته محاولا أن يجد العزاء، ونشوة الحياة في لذعة الجنس في رحاب البغيّ وصال، إنها عزاؤه لعلها تقضي على دوامة القلق والحيرة، التي تبعثها عبلة، ولعلها النسيان السحري لعذاب البحث عن الحرية والسعادة، ولربما تكون منقذا من الأزمات التي حاقت بنفسه، لكنها لم تكن إلا مجرد نسيان مؤقت، لقد كان « يحبها كمسكّن لألامه وأحزانه، إنها تروي ظمأه ريا مؤقتا، ليست المرأة الكاملة التي ترضي كبرياؤه، وتملأ قلبه، وتشبع الروح والجسد معا ».[34]، لكنه رغم كل ذلك يحس برابط خفي يوصله بها، فهي تمتلك حرية جسدها، وتدوس على قيم الشرف التي سنها الآخرون، فتقيم العلاقات بدون قيود، لكنها رغم كل هذه الحرية، لا تمتلك حق التمنع عن زوارها من سادات قريش، وهي رغم كثرة الزوار كانت تعيش الوحدة والتعاسة، على شاكلة وحشي الذي امتلك حرية جسده، لكنه لم ينعم بالحرية والسعادة، لقد وقعا بين المنزلتين فهما حرّان ومقيدان في الآن ذاته، وهذا ما يوحى به اسمها "وصال"، إنه وصل من نوع خاص بينها وبين وحشي!

2-المدرج الديني:

لبث وحشي في المدرج الحسي، لكنه سرعان ما ملّه وتأكد له أن المادة لم تقربه من معنى وجوده، ولم تنله حريته الأصيلة، ظل يتخبط بين أمواج الحياة حتى وصل إلى قمة الفشل، وفي أوج لحظات اليأس قرر أن يضع حدا لمعاناته وبحثه المضني، معلنا القطيعة مع الغير، بل ومع الحياة التي أبت أن تسلمه حريته، وتمنحه وجوده.

بحرْبته التي كانت معادلا لحريته، قرر وحشي أن يغرسها في قلبه ليريح نفسه من مشقة البحث عن الحرية، لكن الأقدار ساقت له طريق الهداية على يد صديقه القديم سهيل، ليقفز وحشي في حضن الإيمان، وفي كنف العبودية الأصيلة، بعد عناد وتمرد، حجبا عليه نور الحرية، وبعد تحد لومضة الإيمان***** التي برقت في نفسه منذ البداية يقول: «آه إنني أعرف أنه الحق /.../ أدركت ذلك بفكري وروحي منذ زمن بعيد .. لكني كنت أحاول أن أطمس الحقيقة .. أن أخفيها وراء ستار كثيف من العناد والحماقة»[35].

ادعى وحشي أن القيم لا تنتسب إلى أي مَعِين، بل معينها الأوحد هو الذات وفقط، فخاض معارك ضد كل القيم ومن يمثلها، لتسفر له حربه عن فشل ذريع وصل حد الانتحار، و« عبر هذه الرحلة التي خاضها وحشي باحثا عن الحرية، يقدم نجيب الكيلاني مفهومه للحرية التي يراها نابعة من العقيدة التي تؤكد عبودية الله وحده، هي ليست مطلقة، لها التزامات، كونها تعني الإختيار، ثم الالتزام بما تختار، والاختيار من منظور الكيلاني لا سيطرة فيه لنزوات النفس، إنه نابع من المبادئ الإلهية التي بينتها النصوص القرآنية، وآمن بها القلب ووعاها العقل »[36]، وبهذا استدعى الكيلاني الأحداث التاريخية، لا ليعيد سرد أحداث ماضية، بل ليقارن بين الحرية في الإسلام، والتي منبعها العقل الإيماني، وبين الحرية اللامشروطة، إلا بالاختيار الفردي، وهو المفهوم الذي تأسس عليه الفكر والأدب الغربيان.

أثبت الكيلاني لا جدوى المفاهيم الوجودية، ومعقولية الفكر الإسلامي، لكن هذا الإثبات انطلق من مفاهيم الفلسفة الوجودية نفسها، وبني عليها؛ انطلق من مفهوم الحرية عند الوجودية الملحدة والعبثية، وبنى مفهوم الحرية في الإسلام على الفلسفة الوجودية المؤمنة، وبالتحديد فلسفة كيار كيجارد، التي تتجه نحو الطمأنينة بفضل ما يسميه "المدرج الديني الذي يتحقق بوثبة لا معقولة[37] ، فيتجرد الإنسان من الدنيا ويقبل على الآخرة ليعيش حياة الطمأنينة ويتغلب على مشاعر اليأس والقلق والاحساس بالخطيئة وذلك بفضل الإيمان بالله [38].

يسبق المدرجَ الديني، المدرجُ الأخلاقي في فلسفة كيار كيجارد، وفي هذه المرحلة يتخلص الإنسان من عبودية الجسد والمادة، ويسيرها وفقا لقواعد الأخلاق،

ويختار الواجب واتباع التقاليد مستهدفا تحقيق الخير والأخلاق[39]، غير أن هذه المرحلة لم تتوفر في رحلة وحشي الرامية إلى كشف الحُجب عن الحرية، وتجلت بعض اللمحات القليلة عن الالتزام الأخلاقي عند البطل وحشي، مثل لحظة إدراكه قبل إسلامه لحقيقة السعادة التي غطاها الناس بالأخلاق الذميمة: « إنها موجودة، لكن أنانية الناس وجشعهم يجعلها صعبة التحقيق»[40]، وكذلك تجلت حينما قتل حمزة غدرا، وتيقن أنه جسّد « الحقارة، والنذالة والكبرياء التي تحرك سلوك السادة »[41] ، بل ويتجسد هذا المدرج في الصفحات الأولى من الرواية، فقد أدان وحشي أخلاق سادة قريش بقوله:« أيها الأوباش، إنني أحتقركم وأبصق على قيمكم الرخيصة، وأسخر من ريائكم وأحقادكم الملوثة بالأوحال » [42] ، لكن حقده الذي ولدته العبودية، وعناده، وتحديه لومضة الإيمان، حين زعم أن الحرية لا تعطى، وإنما تؤخذ بالدم؛ دم الأشراف أو الأنذال، حال دون التزامه بالأخلاق الشريفة، وحجبوا عنه نور الحقيقة، فانتقل بذلك مباشرة من المدرج الحسي إلى المدرج الديني بعد رحلة عناء، كادت تنتهي بالانتحار.

وإذا كانت فلسفة كيار كيجارد، يتجرد الإنسان فيها من الزمان والمكان، ولا يتصل إلا بالسرمدية والطمأنينة، فإن الكيلاني، رسم صورة وسطية للإنسان المتدين، تمتد بين الارتماء في حضن الألوهية، ومزاولة الحياة الدنيا وفقا لمبادئ إلهية، وبذلك استلهم الكيلاني مبادئ الفلسفة الوجودية المؤمنة، وطعمها بالمبادئ الإسلامية، ليثبت زيف المفهوم الغربي للحرية من جهة، وليبين من جهة أخرى إنسانية الحرية في الإسلام.

الهوامش:

(1) انظر: إبراهيم مصطفى: نقد المذاهب المعاصرة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر، ط1، ص 246.

(2) جمال الغيطاني:" نجيب محفوظ"... يتذكر، دار المسيرة، بيروت، لبنان، 1980، ط1، ص54.

* يتجلى هذا التحول بشكل واضح في أعمال نجيب محفوظ، إذ مثلت نكسة ثورة يوليو 1952 منعرجا هاما في إبداعه الروائي، الذي تحول من التصوير الواقعي إلى رصد مشكلات الفرد

وأزماته، والتي تجلت في معادلات ذهنية ملخصها الاخفاق، حتى وسم بعض النقاد هذه المرحلة بالمرحلة الذهنية والمرحلة الفلسفية، انظر: مصطفى التواتي: دراسات في روايات نجيب محفوظ الذهنية "اللص والكلاب" "الطريق" "الشحاذ"، الدار التونسية للنشر، تونس، 1986، ص 11.

(3) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1999، ص:11

(4) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص:60

(5) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص:05

(6) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص:07

(7) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص:06

(8) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص: 12

(9) عبد الرحمن بدوي: دراسات في الفلسفة الوجودية، دار الثقافة، لبنان، 1973، ط 3، ص 13.

(10) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص:20

(11) عبد الرحمن بدوي: دراسات في الفلسفة الوجودية، ص 19.

(12) عبد الرحمن بدوي: دراسات في الفلسفة الوجودية، ص 2.

(13) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص:43

(14) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص:139

(15) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص:300

** تبادر إلى وحشي في البداية أن يؤمن بالرسالة الإسلامية، لكنه خاف ردة فعل سيده جبير، غير أن هذه المحاولة لدخول الإسلام لم تنبع من قناعة ذاتية، وإنما كانت مجرد مسرب لنيل الحرية.

(16) جون كرونشانك: ألبير كامو وأدب التمرد، ترجمة جلال العشري، دار الوطن العربي، ص 96.

(17) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص:115-116

(18) جون كرونشانك: ألبير كامو وأدب التمرد، ترجمة جلال العشري، ص 135.

(19) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص:13

(20) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص:117

(21) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص:130

(22) جون كرونشانك: ألبير كامو وأدب التمرد، ترجمة جلال العشري، ص 135.

*** وضع سارتر جملة من الشروط للحرية منها شرط الاستلاب (الاغتراب)، فالغير سلب عالم الفرد والخطيئة الأولى هي ظهور الفرد في عالم يوجد فيه الغير، الذي لا أهمية له إلا بالقدر الذي يعكس الذات الفردية، انظر: ابراهيم مصطفى: نقد المذاهب المعاصرة، ص 302.

(23) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص:08

(24) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص: 16

(25) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص:21

(26) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص:06

(27) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص:11

(28) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص:41

(29) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص:41

(30) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص:70

(31) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص: 50

(32) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص:23

(33) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص:86-87

(34) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص:195

***** التمرد عند كامو هو رفض يتميز بالتحدي لومضة الإيمان ولكل القيم التي تبعث الرضى في النفس، انظر: جون كرونشانك: ألبير كامو وأدب التمرد، ترجمة جلال العشري، ص 96.

(35) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص:312

(36) الشريف حبيلة: بنية الخطاب الروائي دراسة في روايات نجيب الكيلاني، عالم الكتب الحديث الأردن، 2010، ط1، ص 336

(37) عبد الرحمن بدوي: دراسات في الفلسفة الوجودية، ص45.

(38) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(39) عبد الرحمن بدوي: دراسات في الفلسفة الوجودية، ص 44-45

(40) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص:125

(41) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص: 136

(42) نجيب الكيلاني، رواية "قاتل حمزة"، ص:15